مبدأ الامام

بقلم فضيلة الشيخ محمد جواد مغنية

كن من تشاء كن الدنيا بكاملها فلست تعدل صديقاً بميزان

اخذ الشاعر هذه الحكمة البالغة من سيد البلغاء، وامام الحكماء امير المؤمنين (ع) حيث قال مشيراً الى حذائه البالية : والله ان هذه خير عندي من دنياكم الا ان اقيم حقاً او ادفع باطلا .

ما هذا المنطق ؟ ! وما هذا الميزان ؟ ! انعل بالية لا تقدر بشيء ولا يبذل بازائها قليل من متاع الحياة توزن بالملك والسلطان بل بالدنيا بكاملها فترجح عليها وعلى لذاتها جميعاً وتكون خيراً منها ومن اشيائها كافة ان هذا لشيء عجاب ؟ ! ! .

ان هذا المنطق منطق من يقول فصلا ، ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من حواشيه، ان هذا الميزان ميزان القائل : دعوني اكتفي من دنياكم بملحي واقراصي فبتقوى الله رجو خلاصي . .

واذا كانت الامور توزن باثمارها ، وتقاس بنتائجها فان الحذاء التي تقي القدم من الاوساخ والقاذورات والاحجار والاشواك خير من الملك الجائر والسلطان الظالم الذي يؤدي بالارواح والاموال او بالشرف والمروءة ، ان الدنيا التي يتمتع بها الشقي الفاسق، ويحرم منها التقي العادل ، لاتعادل في ميزان الحق جناح بعوضة ولا ورقة في فم جرادة .

ان في الانسان غريزة من اقوى الغرائز البشرية وهي حب العظمة والرغبة الملحة في ان يكون المرء شيئاً مذكورا جوع يضطرم كالجحيم وظمأ يلتهب كالسعير احرق بلفحاته الأخضر واليابس ، يسلك المرء كل سبيل ويضحي بالنفس والنفيس والعزيز والثمين ليسكن هذه الادواء المنبعثة عن حب العظمة والشعور بالاهمية . .

وكم من احد تدرع بالنفاق والرياء ، والحقد والجفاء ، والخزيبة الحمقاء ، كي يحصل على شيء من الشهرة والكمال الموهوم ، فلم ينجح مسعاه اذ لم يحصل على شيء ، واذا حصل لا يدوم . ان للباطل جولة ثم يضمحل .

والسر الوحيد ان كل عمل لم يبن على اساس متين من الدين ولم يرتكز على مبدأ سيد الوصيين وهو التقوى باطاعة الله ومتابعة الراسخين في العلم من الائمة الاطهار والعلماء الابرار لابد وان يكون مآله الى الهباء والخسران ومصير صاحبه الى الفشل والخذلان [لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون] .

(افمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانه خير ، ام من اسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) .

واذا كان علي مع الحق والحق مع علي — كما في الحديث الشريف — فمن الطبيعي ان يرتكز بنيانه على تقوى الله ورضوانه ومن الطبيعي ان تكون الامارة والغابها والزعامة واثوابها هباء في نظره اذا لم تكن وسيلة لاقامة الحق ودفع الباطل .

هذا هو المبدأ الوحيد الذي يستطيع الباحث ان يفسر به شخصية الامام (ع) ويرجع اليه جميع افعاله وصفاته وهذا هو البرنامج والبيان الذي اذاعه على الناس كافة ودعاهم اليه قبل الخلافة وحينها ولم يحد عنه طرفة عين فما دونها ، وهذي هي الروح التي اورثها بنيه عليه السلام بالتربية والعرق حتى اصبحت لهم كطبيعة الحياة تسيطر على غرائزهم وتدفعهم الى المسير في طريق الحق والعدالة .

واهل الكوفة اعلم الناس بعلي وبنيه يعلمون انفعالهم وبواعثهم، وما يوقظهم ؟ ويستثيرهم ؟ لذلك كتبوا الى الحسين عليه السلام: اقبل لعل الله ان يجمعنا بك على الحق، ايسمع الحسين صوت الحق فلا يسرع لتلبيته ! أليس هو ابن علي ؟ ولكن تريث هنا قليلا لأن اهل الكوفة اصحاب ابيه واخيه تريث ليتأكد ان الصوت من اعماق الفؤاد، فارسل ابن عمه مسلماً « ع » فلما تبين انه صوت القلب خف اليهم مسرعاً .

لو لم يلب الامام نداء الكوفيين . فلمن تكون الحجة وعلى من تقع التبعة ؟ وما ذا يكون حكم التاريخ ؟

ان لم يلب الامام نداء الكوفيين فيحكم التاريخ اما بان الحسين « ع » لا يجيب داعي الحق اذا دعاه واما بان يزيد اهل للخلافة، لان الامام اقره واعترف بسلطانه وهذا الاخير